هلا شققت عن قلبه

روى البخاري في صحيحه: عن أُسَامَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، قَالَ: فَصَبَّحْنَا القَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، قَالَ: وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: فَكَفَّ عَنْهُ الأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَقَالَ لِي: «يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، قَالَ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ، حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ اليَوْمِ.

ولفظ مسلم: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟».

نبدأ ببيان ترجمة أسامة بن زيد:

هو أسامة بن زيد بن حارثة حب النبي صلى الله عليه وسلم وابن حبه زيد بن حارثة.
وكان أبوه زيد فيما روي عن أنس بن مالك وغيره من الشام سَبَتْه خيل من تهامة،
فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد، فوهبه لعمته خديجة، فوهبته خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبناه فأقام عنده مدة، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان في فدائه، قال في روح المعاني" : وكان من أمره رضي الله تعالى عنه على ما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال:.. ركب معه أبوه وعمه وأخوه حتى قدموا مكة فلقوا رسول الله فقال له حارثة: يا محمد أنتم أهل حرم الله تعالى وجيرانه وعند بيته تفكون العاني وتطعمون الأسير ابني عندك فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه فإنك ابن سيد قومه وإنا سنرفع إليك في الفداء ما أحببت فقال له رسول الله: أعطيكم خيرا من ذلك قالوا: وما هو؟ قال: أخيّره، فإن اختاركم فخذوه بغير فداء، وإن إختارني فكفوا عنه فقال: جزاك الله تعالى خيرا فقد أحسنت فدعاه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: يا زيد أتعرف هؤلاء قال: نعم هذا أبي وعمي وأخي فقال عليه الصلاة والسلام: فهم من قد عرفتهم، فإن اخترتهم فاذهب معهم، وإن اخترتني فأنا من تعلم قال له زيد: ما أنا بمختار عليك أحدا أبدا أنت معي بمكان الوالد والعم قال أبوه وعمه: أيا زيد أتختار العبودية قال: ما أنا بمفارق هذا الرجل، فلما رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حرصه عليه قال: اشهدوا أنه حر وإنه ابني يرثني وأرثه، فطابت نفس أبيه وعمه لما رأوا من كرامته عليه عليه الصلاة والسلام، فلم يزل في الجاهلية يدعى زيد بن محمد حتى نزل القرآن: ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ. فدعي زيد بن حارثة.

@ مواقف لأسامة مع النبي صلى الله عليه وسلم:

وكان النبي ﷺ يحب أسامة رضي الله عنه كثيراً، حتى إنه لما أصابته الحصباء وكان لعابه وأنفه يسيل، فأمر النبي ﷺ عائشة أن تطرح الأذى عنه، فكأنها كرهت ذلك، وعافت نفسها، فأخذ النبي ﷺ يزيل ذلك عنه بنفسه ﷺ، وهذا لتواضع النبي ﷺ الشديد، فإن الإنسان قد لا يفعل ذلك لولده، ويتقذر، فكيف بهذا الغلام الأسود الذي هو ابن لمملوك عند رسول الله ﷺ؟!، وهذا يدل على شدة حب رسول الله وقال: ((يا عائشةُ، أحبِّيه فإني أحبُّه)).

•عن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يأخذه والحسن ويقول: ((اللهم إني أحبُّهما فأحبَّهما)).[3]

•عن محمد بن أسامة بن زيد، عن أبيه، قال: لما ثقل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هبطت وهبط الناس المدينة، فدخلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد

أصمتَ فلم يتكلَّم، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يضع يديه عليَّ ويرفعهما فأعرف أنه يدعو لي.[4]

•عن عائشة - رضي الله عنها - أن قريشًا أهمَّهم شأن المخزومية، فقالوا: مَن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِب رسول الله - صلى الله عليه وسلم.[5]

•عن أسامة بن زيد - رضي الله عنه -: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمهما، ثم يقول: ((اللهم ارحَمْهما فإني أرحَمُهما)).[6]

وولاه النبي صلى الله عليه وسلم جيشا فيه كبار الصحابة لملاقاة الروم وكان عمرة سبع عشرة سنة وذلك انتقاما لأبيه زيد بن حارثة الذي قتل في غزوة مؤتة وعقد النبي اللواء لأسامة بيده، وكن هذا في آخر حياة النبي وبينما هو في أول السير لملاقاة الروم جاءه خبر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فعاد المدينة .. ثم أنفذه أبو بكر رضي الله عنه .

ومن مواقفه مع النبي قصة هذا الحديث موضوع خطبتنا اليوم:

أرسله النبي صلى الله عليه وسلم قائدا لسرية لتأديب قبيلة جهينة فلما كان في مكان اسمه الحرقات وانتصر فيه المسلمون.

ثم يصور لنا الحديث جانبا من المطاردة بين أسامة ومعه رجل من الأنصار خلف رجل من المشركين ولما تمكنوا منه نطق بالشهادتين فكف عنه الأنصاري وطعنه أسامة بن زيد.

ولما عاد ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم هذه الواقعة فغضب النبي صلى الله عليه وسلم فَقَالَ لِي: «يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، قَالَ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ، حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ اليَوْمِ.
ولفظ مسلم: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟».
وهنا فوائد كثيرة متعلقة بهذا الحديث ومنها:

أولا – مشروعية طلب العدو بما يسمى بجهاد الطلب وهو جهاد لنشر الإسلام وفتح البلدان وتأمين الحدود.

ثانيا – وجوب شهادة أن لا إله إلا الله بالقلب واللسان، فإن أبداها بلسانه ولاندري عما في قلبه أخذنا بظاهره ووكلنا سريرته إلى الله عزّ وجل ووجب الكفّ عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك، ولا يجوز أن نتهمه ونقول: هذا الرجل قالها كاذباً، أو خوفاً من قتل أو أسر، لأننا لا ننقب عن قلوب الناس.
@ فحكم الإسلام يثبت بأحد هذه الأمور:

١- التلفظ بالشهادتين .
@ قال البغوي: الكافر إذا كان وثنيًا، أو ثنويًا لا يقر بالوحدانية، فإذا قال: لا إله إلا الله حكم بإسلامه، ثم يجبر على قبول جميع أحكام الإسلام، ويبرأ من كل دين خالف دين الإسلام، وأما من كان مقرا بالوحدانية منكرًا للنبوة، فإنه لا يحكم بإسلامه حتى يقول: محمد رسول

الله، فإن كان يعتقد أن الرسالة المحمدية إلى العرب خاصة، فلا بد أن يقول: إلى جميع الخلق، فإن كان كفر بجحود واجب، أو استباحة محرم، فيحتاج أن يرجع عما اعتقده"
ويثبت حكم الإسلام لمن ولد لأبوين مسلمين أو لاحدهما.
وبالصلاة على القول الراجح.

ثالثا: النبي لم يُضمن أسامة ولم يقتله به؛ لوجود شبهة في قتله وهي أنه كان متأولا أنه لم يسلم أصلا .

والعذر بالتأول معناه التلبُّسُ والوقوعُ في المعصية من غيرِ قَصدٍ لذلك، وسببُه القصورُ في فهم الأدِلَّة الشَّرعيَّة، دون تعمُّدٍ للمخالفةِ، بل قد يعتَقِدُ أنَّه على حقٍّ .
وشرطه أن يكون تأويله سائغًا في لسانِ العَرَبِ، وله وجهٌ عند أهل العِلمِ.

@ ومن أقوى الأدِلَّة على العُذرِ بالتأويل قِصَّةُ حاطِبِ بن أبي بلتعةَ رَضِيَ اللهُ عنه:
فعن عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه في قصة فتح مكة وطلب النبي تكتيم الأمر حقنا للدماء ثم علم النبي بالوحي بأن حاطب بن أبي بلتعة أرسل كتابا لقريش يخبرهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم وخروجه إليهم فلما سأله النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا رَسولَ اللهِ، لا تعجَلْ عليَّ، إنِّي كنتُ امرَأً مُلصَقًا في قريشٍ، ولم أكُنْ من أنفُسِها، وكان من معك من المهاجرين لهم قراباتٌ بمكَّةَ يحمون بها أهليهم وأموالَهم، فأحببتُ إذْ فاتني ذلك من النَّسَبِ فيهم أن أتخِذَ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلتُ كُفرًا ولا ارتدادًا، ولا رضًا بالكُفرِ بعد الإسلامِ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)) :لقد صدَقَكم((

ومن الأعذار أيضا فى الحديث: (إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) .

ومن الأعذار أيضا العذر بالجهل.

الفائدة الرابعة: العمل بالظاهر:

واعتباره - صلى الله عليه وسلم - لظواهر الأحوال كان ديدنا له في جميع أموره منها

حديث: «إنما أقضي بما أسمع فمن قضيت له بشيء من مال أخيه فلا يأخذنه إنما أقطع له قطعة من نار»

وكذلك حديث مسلم في الرجل الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم: اتَّقِ اللهَ، فَقَالَ: «وَيْلَكَ أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ» قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فَقَالَ: «لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي» قَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ»

ومن أعظم اعتبارات الظاهر ما كان منه - صلى الله عليه وسلم - مع المنافقين من التعاطي والمعاملة بما يقتضيه ظاهر الحال.

وفي قصة هِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ لما لاعن زوجته فحلف وحلفت الأيمان فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن جاءت به أورق (أسمر) جعدا (فِيهِ الْتِوَاءٌ وَانْقِبَاضٌ) جماليا (ضخم الأعضاء كأنه جمل) خدلج الساقين (أي عظيمهما) سابغ الأليتين فهو للذي رميت به»، فجاءت به أورق جعدا جماليا خدلج الساقين سابغ الأليتين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن».

الفائدة الخامسة: القلب له قول وعمل:

فالإيمان قول وعمل : " قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح ".
أما قول اللسان؛ فالأمر فيه واضح، وهو النطق، وأما عمله؛ فحركاته، وليست هي النطق، بل النطق ناشئ عنها إن سلمت من الخرس. وأما قول القلب؛ فهو اعترافه وتصديقه. وأما عمله فهو عبارة عن تحركه وإرادته؛ مثل الإخلاص في العمل، فهذا عمل القلب، وكذلك التوكل والرجاء والخوف؛ فالعمل ليس مجرد الطمأنينة في القلب، بل هناك حركة في القلب. وأما عمل الجوارح؛ فواضح ركوع، وسجود، وقيام، وقعود..
الفائدة السادسة: أهمية القلب وأن محل نظر الله تعالى.
عن أبي هريرة قال قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم).
روى مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر؛ فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس فذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأبصر ثم عمي، وقلب تمده مادتان: مادة إيمان ومادة نفاق فهو للغالب عليه منهما.
الإسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما كان قبلها:
قوله : (حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم) أي أن إسلامي كان ذلك اليوم ؛ لأن الإسلام يجب ما قبله ، فتمنى أن يكون ذلك الوقت أول دخوله في الإسلام ليأمن من جريرة تلك الفعلة ، ولم يرد أنه تمنى أن لا يكون مسلما قبل ذلك.

قال القرطبي :وفيه إشعار بأنه كان استصغر ما سبق له قبل ذلك من عمل صالح في مقابلة هذه الفعلة لما سمع من الإنكار الشديد ، وإنما أورد ذلك على سبيل المبالغة ، ويبين ذلك أن في بعض طرقه في رواية الأعمش " :حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ. " .

وقد اعتزل أسامة - رضي الله عنه - الفتنة التي حدثت في عهد علي - رضي الله عنه - ومعاوية -رضي الله عنه-